مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد العاشر
1993م.

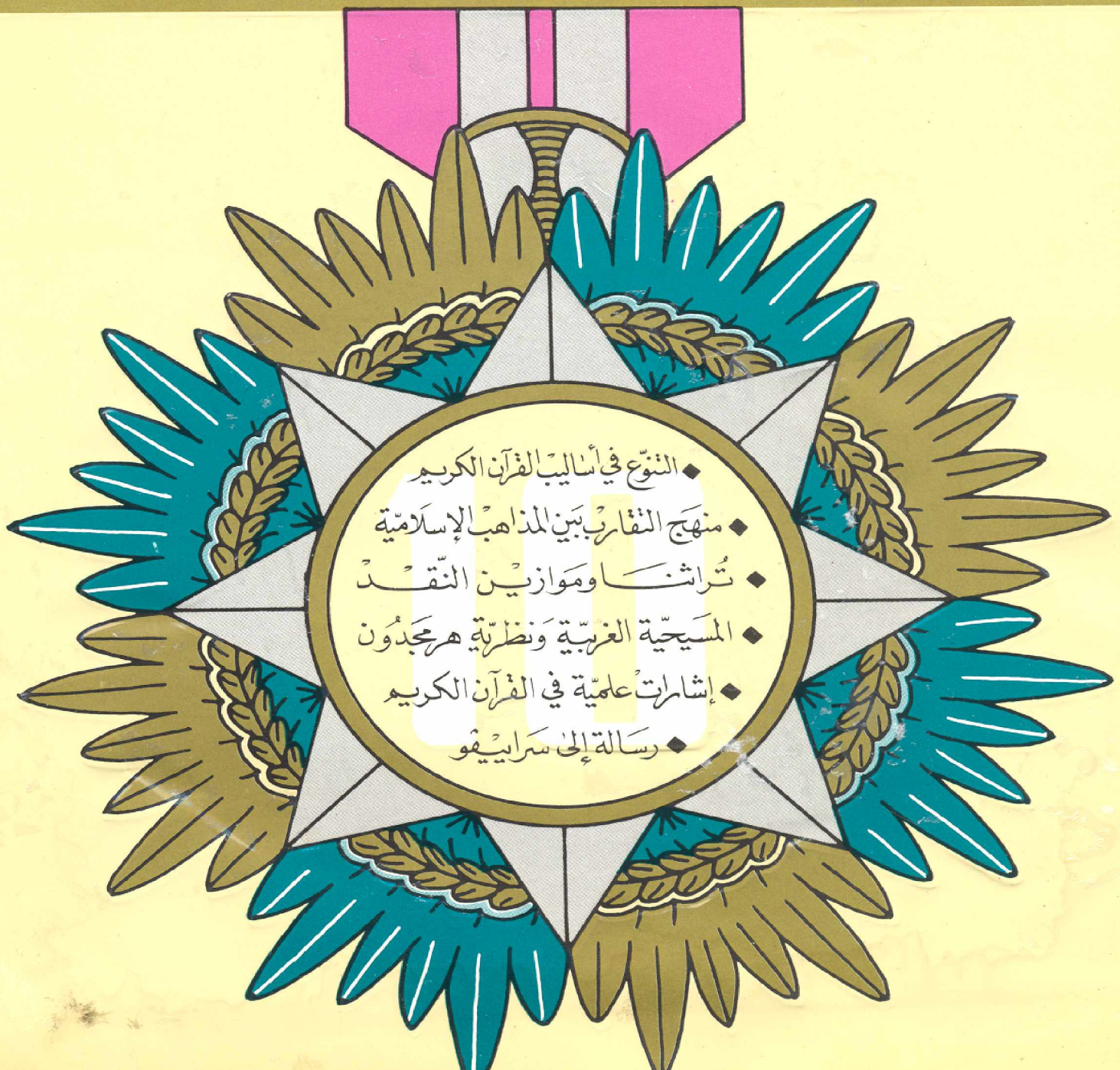

- التنوع في أساليب القرآن الكريم
- منهج التقارب بين المذاهب الإسلامية
- تراثنا وموازين النقد
- المسيحية الغربية ونظرية هرمجدون
- إشارات علمية في القرآن الكريم
- رسالة إلى سراييفو

استدراج

الدكتور مسعود عبدالله الوازني

تجمع معاجم اللغة العربية ومصطلحاتها على أن الاستدراج مصدر من معانيه الدنو على التدريج، ويقال إن فلاناً امتنع من كذا وكذا حتى أتاه فلان فاستدرجه؛ أي خدعه حتى حمله على قبول ذلك. واستدرج ودرج بمعنى واحد، ومنه رقاه وأدناه منه على التدريج فدرج فيه معتاداً ذلك الأمر، وبذلك يكون كأنما رقاه منزلة بعد أخرى وهذا من المجاز.

ومنه استدرجه كلامي أي أقلقه حتى تركه يدرج على الأرض قال الأعشى:

فلو كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم
ليستدرجنك القول حتى تهزه وتعلم أني عنكم غير ملجم

ويقال استدرج فلان الناقة إذا استتبع ولدها بعدما ألقته من بطنها. كما يقال استدرجت الناقة ولدها إذا استتبعته بعد أن تلقيه من بطنها. ومنه درج الصبي إذا قارب خطاه. وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء. ودرج القوم مات بعضهم إثر بعض. ويقال استدرجت الريح الحصى إذا عصفت به ولم ترفعه إلى الهواء وإنما تركته يدرج على الأرض.

ولم تكن المعاني لكلمة الاستدراج مقتصرة على ما سبقت الإشارة إليه،

وإنما اكتسبت معاني جديدة عن طريق التوسع في الاستعمال، وأصبح يعبر بدلالة هذه الكلمة في مجالات كثيرة وبيئات فكرية متعددة، ومنها الفلسفة التي يعد الانتقال فيها من مرحلة فكرية إلى أخرى استدراجاً، لأن بحوثها تبتدىء عادة بالأقرب إلى الحس كي يأنس الذهن ويستعد تدريجياً للبحوث الانتزاعية التجريدية البعيدة عن الحس. كما ظهر هذا المدلول أيضاً عند أرباب المذاهب الباطنية التي كان يعتمد دعاتها على استدراج الناس إلى عقائدهم، وذلك باستقطاب بعض الأغمار كما هو الحال بالنسبة للمكاسر[1] الذي يبتدىء داعي الدعاة في تلقينه مسائل اختلاف المذاهب وآراء أهل الملل والنحل كلها من فرق إسلامية وغير إسلامية، ويظهر له مواطن الضعف في كل مذهب وفي كل رأي وملة، ثم يعلم كيف يجادل في اختلاف هذه الآراء وكيف يناقش أصحابها، فإذا تم له ذلك يبدأ الداعي في تدريبه على تفهم نفسية كل جماعة من الجماعات... دون أن يشعر أحداً أنه ينتمي إلى مذهب أهل الحق، بل يفرض عليه أن يكتم ذلك كتماناً شديداً... ويتدرج المكاسر بين الدعاة حتى إذا وثقوا به بدأوا مكاشفته بالأسرار الخفية التي لا ينفر منها[2] وهكذا. أما بالنسبة لمراتب الأئمة عندهم فهي تقوم على مقامات تتمثل في الإمام والمقيم، الأساس، المتم المستقر، المستودع، القائم بالقوة، القائم بالفعل. وكل هذه المقامات هي مراتب يدرج فيها مقاماً بعد مقام كما هو الحال بالنسبة للصوفية الذين يتدرجون هم أيضاً في مدارج السالكين مقاماً بعد مقام، ابتداءاً من درجة السالك ومروراً بالمريد والحال والمقام، وما إلى ذلك من الدرجات التي أوصلها البعض إلى اثني عشر مقاماً.

وفي التنزيل الكريم ﴿**والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين**﴾ [3] والمراد هنا كما يرى الزمخشري أن الله سبحانه وتعالى يستدين العصاة قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم... وذلك بأن

---

(1) المكاسر: هي أصغر مرتبة في درجات الدعاة، يختار اختياراً خاصاً، ولا يسمح له بالمكاسرة والمجادلة إلا بعد امتحان عسير وتجارب كثيرة يخضع لها عند انتدابه لهذه المهمة الصعبة.

(2) لمزيد الاطلاع انظر د /مصطفى غالب. مفاتيح المعرفة. المكاسر ص 183.

(3) القلم. 45.

يواتر نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي. ويرى الجبرية أن المراد من الاستدراج هو أن يستدرجهم إلى كفر بعد كفر. ولم يرتض أبو علي الجبائي من غير علم مرتكبها. ثم إن السين تعني الاستقبال ولا يجوز أن يستدرجهم الله إلى كفر آخر لجواز أن يميتهم قبل وقوعهم فيه، ثم إن الله أجل من أن يعاقب الكافر بأن يخلق فيه كفراً آخر والكفر هو فعل العبد وعقابه يكون بفعل نفسه. وعقب الفخر الرازي على هذه الآراء بقوله: واعلم أن أصحابنا احتجوا في مسألة القضاء والقدر بالاستدراج والإملاء والكيد المتين وكلها تدل على أنه تعالى أراد بالعبد ما يسوق إلى الكفر والبعد عن الله تعالى، وذلك ضد ما يقوله المعتزلة أي أن الله حسب وجهة نظره يقربهم إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم باباً من أبواب النعمة والخير في الدنيا فيزدادون بطرا وانهماكاً في الفساد وتمادياً في الغي ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم، ولهذا قال عمر ـ رضي الله عنه ـ لما حمل إليه كنوز كسرى (اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً فإني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وإلى هذا المعنى ذهب ابن جرير الطبري غير أنه جعل علة استحقاق العقوبة مترتباً على التمادي في الكفر وقال إن الاستدراج المتمثل في تزيين سوء عمله إنما يقصد به بلوغ الغاية التي كتبت له من الإمهال لأن أصل الاستدراج كما يراه يتمثل في اغترار الكافر بالنعم فيتمادى في طغيانه ثم يأخذه الله بغتة بعد أن تتكامل الحجج.

ومن الاستدراج أيضاً ما يراه علماء العقائد في ظهور الكرامات على أيدي بعض الفسقة. وهذا الرأي يصعب الأخذ به، لأن الذي يظهر على أيدي الفسقة هو من قبيل المخاريق والشعوذة ولا يصح أن نسميه كرامة، لأن الكرامة أعظم من أن يجريها الله على يد فاسق.

وأياً كان الأمر فإنه لا يجوز أن نقيس مسألة استدراج الله الكفار بالمقاييس الذهنية القاصرة التي نقيس بها ما يجري في حياتنا، فالله أجل من أن يكون استدارجه العبد كما يستدرج أحدنا الآخر. وإذا كان هنالك من تشابه في التعبير

فإنما هو في التصوير دون ما يتم بالفعل، لأن الظروف المؤقتة خلال فترة الاختبار إن كانت ملائمة فهي لا تدل على فوز الإنسان وسعادته وإن جرت على غير ذلك فهي لا تدل على خسرانه وشقائه، وإن المقياس دائماً يكمن في مدى استجابة الإنسان لأمر الله واتباع مرضاته، أما أن يملي الله للإنسان من غير أن يكون الإنسان هو الذي اختار طريق الغواية بإرادته فهو أمر لا يقره مبدأ التكليف..

م ـ د م/ط . ى/

المصادر

1 ـ إبراهيم البيجوري، تحفة المريد على جوهرة التوحيد ط 1/1954 مطبعة علي صبيح بالأزهر الشريف مصر.

2 ـ أحمد رضا معجم متن اللغة ط /1958 دار مكتبة الحياة بيروت.

3 ـ الجرجاني، علي بن محمد الشريف. التعريفات ط /1985 م مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح بيروت.

4 ـ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس تحقيق مصطفى حجازي ط /1969 مطبعة حكومة الكويت.

5 ـ الزمخشري، جار الله محمود عمر. الكشاف عن حقائق التنزيل في وجوه التأويل ط /دار المعارف بيروت.

6 ـ الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ط 3/1968 البابي الحلبي مصر.

7 ـ الفخر الرازي. التفسير الكبير ط /دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.

8 ـ الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني. الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ط 2/1981 منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق.